

الاستقرار السياسي وتطور الأدب

أي جهة من خلالها يمكن الحديث عن الأثر، الذي تتركه السياسة على الأدب؟ فال موضوع له مداخل كثيرة، وزوايا متعددة في النظر، والطريقة في التناول، والظروف المواتية، التي تسمح لهذا الأثر بالحدوث.

فأي سياسة نعني وأي أدب؟ وما حدود اتصالهما، وحدود افتراقهما؟.

في الكثير من الدراسات والبحوث جرى تسييس الأدب وتأديب السياسة على اعتبار المؤثرات المتبادلة فيما بينهما، وعلى اعتبار الارتباط العضوي، الذي يجعل كلاً منهما يرسم عالم الآخر من العمق.

وإذا كان الأمر هنا يتعلق بالسياسيين والأدباء، فالحديث عنه له سياقه المعروف، ولهم تاريخه المدروس، فعبر تاريخ العلاقة بينهما، لا ترى سياسياً (ملكاً أو رئيساً أو وزيراً) مشهوراً تخلو حياته أو صداقاته من أديب له سمعته ومكانته، فال بتاريخ العربي القديم يزخر بالكثير من القصص، التي تشير إلى تلك العلاقة، حيث يكفي النظر إلى تاريخ مجالس الملوك والوزراء ورجالات الدول، ليتضح لك أن أكثر ندماً لهم مثقفون وأدباء وشعراء، بل كان لبعضهم أثر مباشر على قرارات سياسية ارتبطت بهذا الحاكم أو ذاك.

لكن الأمر في هذه المقالة لا يرتبط بهذا الجانب، -على أهميته التي لا تخفي على أحد- بيد أنني سأناقش جانباً آخر من مسألة العلاقة تلك، من زاوية خطوط التماس التي صنعتها الاحتكاك بين حركة تطور الشعر العربي من جهة، والتطور السياسي من جهة أخرى. لأجل الوصول إلى نتيجة مفادها: أن الاستقرار السياسي من عدمه له عواقب تتصل بالدرجة الأولى بالحياة الإبداعية من تقاليد وعادات وطقوس، عادة ما تكون ملزمة، سواء كانت هذه العواقب سلبية من جهة عدم الاستقرار، أو إيجابية من جهة الاستقرار.

وسأضرب بمثالين أحدهما من التاريخ القديم والآخر من التاريخ المعاصر.

عندما أسس أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي مدينة بغداد (الزوراء في حينها) سنة 145 للهجرة، كانت مدينة البصرة والكوفة وبجانبها دمشق محطة ركاب العلماء والأدباء، ومحط إشعاع علمي ترسخ في الثقافة العربية الإسلامية.

لكن ما دخلنا القرن الثالث الهجري حتى سحبت بغداد البساط من تلك المدن، وأصبحت مدينة جاذبة لكل شاعر أو أديب أو عالم طامح للشهرة والمكانة والغنى. فهذا أبونوواس يترك البصرة كما سبقه إلى ذلك الحسين بن الصحاك، الذي أصبح نديم الأمين، «وهذا الجاحظ يلتحق بالمدينة نفسها منذ السنوات الأولى من حكم المأمون».

لكن لا هذه الجاذبية ولا الرغبة في الحصول على امتيازاتها تفسر هذا الجاذبية عند الكثير منهم، فمثلاً كما يلاحظ بحق جمال الدين بن الشيخ في كتابه «الشعرية العربية» أن أبو تمام كانت مصر ودمشق هنا محطة شهرته الأولى قبل أن يتوجه إلى بغداد، وكذلك فعل البحترى. كذلك كان الشاعر ديك الجن، الذي لم تغريه بغداد وظل ملازماً حمماً، وابن المعذل الذي ظل ملازماً للبصرة.

فهل هناك أسباب أخرى تفسر هذه الجاذبية؟

يجيب المؤلف: من خلال نظام سماه «نظام الاحتراف»، ما هو؟

هو شبكة من العلاقات المعقدة بين الكتاب تؤسس لتقاليدها بحثاً عن مشروعيتها عند الطبقات المكونة لنظام الحكم من طبقة الوزراء، أو الحباب، أو التجار والملوك. لذلك «اكتسب بلاط العباسيين دقة في التنظيم والهرمية وصرامة الألقاب والصفات ودقة الاحتفالية»، وهذه جميعها لم تكن معروفة في السابق.

بحيث أصبح هذا التنظيم شرطاً للوصول للحظوة والشهرة، وأيضاً للتحدي والمبرزة بين الأدباء والشعراء.

ورغم ما شاب القرن الثالث من ثورات وحروب إلا أن الاستقرار السياسي للدولة العباسية في أوج مراحلها أتاح الفرصة لوجود تقالييد أدبية ترسخ الكثير منها إلى وقتنا الحاضر.

أما المثال الآخر، فيمكن النظر إليه من خلال صورة المتنبي كصورة معيارية يقاس عليها كل ما يقع في العالم العربي من انتكاسات وهزائم. انطلاقاً من هذه، وجدنا الحركة الرومانسية تستحضر صورة البطل المعبر عن روح أمه، وهذا الأخطل الصغير يقول في مطلع قصيدة:

نفيتَ عنكَ الْعُلَى وَالظَّرْفُ وَالْأَدْبَا ... وَإِنْ خَلَقْتَ لَهَا - إِنْ لَمْ تَزَرْ حَلْبَا.

وهكذا في كل مرحلة سياسية يمر بها العرب تتجدد صورة المتنبي وفق ما يملئه الوجدان العربي

ومتطلباته. ويمكن التفصيل في كل مرحلة إذا ما أردنا ذلك، فالقول فيها كثير.